مختبر الحوار الخليجي
Gulf Dialogue Lab

تقرير الندوة الرابعة
مختبر القصة والرواية

دور الرواية في التحولات الاجتماعية والثقافية

د. زينب إبراهيم الخضيري
مشرفة مختبر القصة والرواية

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

عقدت هذه الندوة بتاريخ 14/8/2023م وشارك فيها كل من:

1. أ.د. عادل الزهراني من السعودية، وهو أستاذ النقد الحديث بجامعة الملك عبد العزيز.
2. د. مريم الهاشمي من الإمارات، وهي أستاذ مساعد في كليات التقنية العليا.
3. د. عودة الشمري من السعودية، وهو أستاذ مشارك في جامعة أم القرى.

أهم ما طرح ودار في هذه الندوة:

بدأ اللقاء المعنون بـ "دور الرواية في التحولات الاجتماعية والثقافية" بحديث استهله الدكتور زيد الفضيل للترحيب بالمتحدثين، وبتقديم المشرفة على مختبر القصة والرواية الدكتورة زينب الخضيري. ثم بدأت الدكتورة زينب في الحديث حيث قالت: نستهل هذا اليوم رابع حلقات النقاش في مختبر القصة والرواية التابع لمركز الخليج للأبحاث والحوار الثقافي، بداية أقدم شكري لسعادة الدكتور عبد العزيز بن صقر رئيس مركز الخليج للأبحاث، كذلك أقدم جزيل الشكر لعراب الثقافة المشرف العام على مختبر الحوار الثقافي الخليجي الدكتور زيد الفضيل.

في نداوتنا السابقة والتي ناقشنا فيها ثلاث محاور، وهي: الجوائز والطفرة الروائية، وواقع الرواية الخليجية اليوم وعلاقتها بالمنجز العربي، وقد خرجنا بعدة توصيات كان من ضمنها هو عنوان ندوتنا الثالثة وهو: "مقروئية الرواية في العالم العربي". وندوتنا لهذا المساء بعنوان: "دور الرواية في التحولات الاجتماعية والثقافية" وهي ما نختم به سلسلة مختبر القصة والرواية لعام 2023.

والحديث عن دور الرواية في التحولات الاجتماعية والثقافية ذو شجون، فعند انطلاق الرواية الخليجية، في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، ساهمت في رصد التحولات الاجتماعية، والتغيرات الثقافية، والتطورات البيئية والمعيشية، وانعكاساتها في حياة الأفراد والمجتمع، وأنماط التفكير والسلوكيات، والتعبير عن المجتمع وقيمه وتقاليده، ومعالجة القضايا التي تهم الإنسان، وطرح الحلول للمشكلات المتعلقة بوجوده، وهذا ما سوف نناقشه في ندوتنا اليوم مع ضيوفنا الأفاضل. مؤمنة بأن السرد هو الأقدر على تلمس تجليات التحول ومفرداته، ومن هذا المنطلق أتساءل إلى أي مدى استطاعت الرواية مواكبة التحولات الاجتماعية والثقافية المتسارعة والتعبير عنها؟

أجاب على السؤال أ.د. عادل خميس الزهراني حيث قال: السؤال الضمني لعنوان هذه الندوة مهم ومركزي؛ لأنه سؤال الوظيفة الذي هو واحد من أبرز الأسئلة في العصر الحديث، لأن العصر الحديث يعطي العنصر قيمته في وظيفته لا في ذاته، وفي الدور الذي يقدمه ضمن البنية التي يتحرك فيها. إذًا، سؤال الوظيفة هو سؤال العلاقات، لأن البنية في النهاية – أي بنية – هي نتاج تفاعل العلاقات، لا نتاج العناصر في ذاتها. أي أن العنصر يكتسب قيمته في علاقته مع العناصر الأخرى، لا في ماهيته المجردة.

وفي موضوع الأدب والمجتمع: السر في الجدلية، قال الزهراني: إن من الضروري التذكير دوما بالعلاقة الجدلية بين المجتمع والأدب؛ وهي علاقة تجيب عن جزء من سؤال الجلسة، لأن الطبيعة الجدلية للعلاقة تذكرنا دوما بأن النص الأدبي – مهما كان نوعه – ابن مجتمعه، يتحدث اللغة التي كونها مجتمعه، وينظر للعالم وفقا لتصور أسهم مجتمعه في بنائه بشكل كبير، وبذلك يكون الأديب ونصه محكومين بالبيئة التي نتجا عنها. لكن الأدب – عند الأدباء الحقيقيين – ينجح في تجاوز هذا القيد الاجتماعي، عن طريق العبقرية الأدبية (الملكة التي يؤتاها الأديب)، ليصبح مؤثرا في المجتمع كذلك. فالأدب يسهم في إنتاج المجتمع في الوقت نفسه. وقد تطور هذا الفن عبر التاريخ منذ الحكايات الشعبية والأساطير الأولى حتى وصل إلى أشكاله المتطورة اليوم، ومن خلال بؤرة كشف الوظيفة من أبرز أدوار الأدب نتذكر كيف كنا نحلم بـ (الرياض نوفمبر)، لسعد الدوسري، حيث كانت فترة غزو الكويت، وحين سمعنا برواية تقتحم لتحكي مشاهد من تداعيات الظرف التاريخي، أصبح كل همنا الحصول على نسخة. السؤال هنا: ما الذي جعلنا نحن شباب تلك المرحلة نبحث بذلك الشغف عن هذا العمل؟ ما الذي يمكن لرواية الدوسري أن تقول غير أو أفضل مما تقوله الأخبار في التلفاز، والإذاعات العربية والعالمية؟ ويعتقد الزهراني أن كثيرا مما يمكن أن يقال في جلستنا هذه يكمن في الإجابة عن هذين السؤالين. وأيضا رواية (بنات الرياض) مثال آخر مهم، لأنها ببساطة أحدثت ضجة، بل هزة اجتماعية وثقافية لا تضاهى. بعيدا عن الاختلاف الفني حول الرواية بين النقاد والقراء. ويمكن القول إنها رواية ذكية استطاعت استغلال قضايا مسكوت عنها بطريقة عصرية ورشيقة، لتنتج خطابا سرديا صادما. فالأثر العظيم الذي أحدثته الرواية بدأ من السؤال: هل بناتنا بالفعل كما تصورهن الرواية؟ وفي عملية الكشف، تعمل الرواية على مساءلة الواقع الذي تبنيه بأسلوب سردي غير مباشر. أيضا رواية (خبز على طاولة الخال ميلاد) الذي يجد نفسه في مأزق أمام تصورات المجتمع الحادة لمفاهيم الرجولة والأنوثة وأدوارهما في الوجود. النهاية المأساوية لهذا المأزق، تأخذنا رغما عنا لمساءلة تلك الحدود والأسوار، التي نسجن أنفسنا فيها، ثم نقضي العمر -كل العمر- في محاولاتنا للتخلص منها.

ثم انتقل الحوار إلى د. مريم الهاشمي وبدأت مداخلتها قائلة: إن المجتمع والواقع الاجتماعي والتحولات أثرت ولا زالت تؤثر إلى الآن في كل أنواع الفنون ومنها الرواية، حيث كان راشد عبدالله والذي درس في مصر، هو صاحب أول رواية مكتملة العناصر الفنية في الإمارات، لتكون ولادة رواية (شاهندة) عام 1974م، والكاتب محمد عبيد غباش الذي سافر إلى الولايات المتحدة في رحلة دراسية وأصدر روايته الأولى (دائما يحدث في الليل) عام 1979م. ثم نجد الروائي علي أبو الريش أصدر روايته الأولى (الاعتراف) عام 1982م ثم الرواية الثانية (السيف والزهرة) عام 1984م. وفي عام 1982م كتب علي محمد راشد روايته (جروح على جدار الزمن) في الخرطوم، وروايته (عندما تستيقظ الأشجان) عام 1986م، وكانت رواية (أحداث مدينة على الشاطئ) لمحمد حسن الحربي في العام ذاته. ثم توالت الأعمال الأدبية الروائية لاحقا لعبد الله الناوري، ومحمد حسن

الحربي، وباسمة يونس، وحصة جمعة الكعبي، وثاني السويدي، والشيخ سلطان بن محمد القاسمي، وكريم معتوق، ومنصور عبد الرحمن، ومانع سعيد العتيبة. ويمكن أن نطلق عليهم جيل الرواد، الذي كان لهم قصب السبق في الكتابة الروائية في الإمارات.

لذا، تطور الموضوع الروائي بتطور الحياة الثقافية والاجتماعية، فكان التحول النوعي في مطلع السبعينات هو المفارقة للثقافة الشفهية بعد رواية (شاهندة) التي كانت تخضع لسلطة الحكاية الخرافية والشعر الشعبي بإمكاناته المحدودة كنسقين جماليين يعبران عن نمط من التفكير، فبدأت الرواية الإماراتية كما هي غيرها من الروايات وتستلهم صور القضايا الأسرية من واقع البيئة المحلية، كما عالجت الرواية عادات الزواج في الإمارات، ثم ما لبثت أن راحت الرواية بدورها تستكمل هذه اللحظة التاريخية في التعبير عن تطلعات المجتمع الإماراتي كموضوع المرأة، والزواج، والطلاق، وثنائية الرجل والمرأة، والتراث، والدين، والمعاصرة، والانفتاح، والقبلية، والذكورة المجتمعية، وموضوع التطرف، وموضوع المثلية والحريات، والموضوع الحضاري، وإشكالية الذات في علاقتها بالآخر، وصورة الأب، والزوج، والرجل الآخر، والأم، وصورة الزوجة، والمرأة والوعي السياسي والحقوقي، والبحث عن الذات، والمعاناة، والحنين، وغيرها من الموضوعات. ولم تزل الرواية في تطورها الموضوعاتي الذي تستلهمها من التحولات المجتمعية. فإن التحولات الاجتماعية دائما تواكبها تحولات ثقافية، وحين نتحدث عن أحدهما فإننا بطبيعة الحال نتناول الآخر كذلك بشكل بديهي، ولكن التركيز في هذه المشاركة هو الوقوف على أهمية دور الرواية الجيدة في إحداث الأثر حول تلك التحولات، وكيف أنها وبفعل حضور القراء يمكن أن تتربع على عرش العلوم الأخرى في رصدها.

وفي الحقيقة، إن الرواية تتناول لنظرية الأدبية المعاصرة، ففي عالم تهتز فيه كل القيم المطلقة والأنساق الفكرية الكبرى، كان لابد أن تواجه النظرية الأدبية المعاصرة هزات عنيفة، والنظرية – بالمعنى التي يتحدث عنه تيري إنجلتون في كتابه "مغزى النظرية" – التي هي جزء من الحياة؛ فكل الحياة الاجتماعية هي نظرية بمعنى من المعاني، وكما أن كل حياة اجتماعية هي نظرية، فكذلك كل نظرية هي ممارسة اجتماعية حقيقية.

إن الرواية لا تقدم رؤية مباشرة للعالم، والواقع لأنها بذلك ستسقط في الوعظية والتقريرية، أو بالأدب الاستهلاكي، إذ لا مناص لها من أن تقدم رؤية فنية تنشد المواربة والتضليل، وأن الشفرات النصية يكتنفها دائما طابع التعقيد والغموض ما يسنح لنا بوصفها بالتعددية، والتمايز، والمغايرة، حيث نجد شفرات اجتماعية، وثقافية، وسياسية، وأدبية، وذاتية، وغيرها، وأن القارئ لا يتواصل مع النص الأدبي إلا عبر الشفرات الخارجية التي يجد أنها غير غريبة على ذخيرته المعرفية ورصيده الثقافي.

واختتمت الندوة بمداخلة د. عودة الشمري، حيث قال: لا يتوقف الدور الوظيفي والجمالي لفن الرواية عند تصوير التحولات الاجتماعية والثقافية (النهضوية) فقط! إنما يتعدى – دور الفن الروائي – إلى تحديث الواقع، وصناعة النهضة المنشودة والمختلفة ثقافيا، أو اجتماعيا، أو حضاريا...إلخ. وذلك بناء على قيامها وفق العناصر الأساسية من مكوناتها في الأبعاد المكانية، أو الزمانية، أو الشخصيات، أو اللغة، أو الأسلوب، أو الحوار...إلخ. وإن هذه العناصر البنائية لفن الرواية، وما وراءها من تقنيات إبداعية جديرة بأن تحدث تحولا وتطورا فكريا على المستويين الاجتماعي والثقافي. حيث ناقش الدكتور محمد صالح الشنطي موضوع الرواية والتحولات الاجتماعية قبل عقدين من الزمن (انظر: الدكتور محمد صالح الشنطي، فن الرواية في الأدب العربي السعودي المعاصر، دار الأندلس، حائل، ط2، 2003م)، وعرج في حديثه على قضية أسباب ضعف الرواية في الأدب المحلي، وجعل هذا (الهاجس التحولي) في باب مستقل تنسرب منه عدة فصول، ففي الفصل الأول (المخاض) الذي يطرح مسألة الإرهاصات والبشائر، ودور الروائيين عبد القدوس الأنصاري، ومحمد علي المغربي، وأحمد السباعي. (المنعطف) الذي ركز على الإبداع الروائي لحامد دمنهوري، وتحقق الذاتي والمكاني في دراسة لأعمال حمزة بوقري وفؤاد العنقاوي وعاشور.

وذكر الشمري أن الرواية تحمل مضامين ثقافية، وفكرية، وفلسفية واسعة، وتعد وسيلة وأداة نهضوية للمجتمع الإنساني نحو التجدد المتوافق والقيم النبيلة. ففن الرواية يقوم على توظيف الرمز، والقناع، والأسطورة ليسهم في تقديم رؤية استشرافية للمستقبل. فهي تتجاوز الواقع الراهن لتقدم رؤية بناءة وفق عنصر الخيال الأدبي الذي يمثل جوهرا ورافدا مهما في تشكيلها. إن عناصر الرواية المتباينة بين مكان، وزمان، وحدث، وشخصيات، وأسلوب، وحبكة، وحوار، ولغة تضفي بعدا فنيا وقيميا في إثراء التحولات الاجتماعية والثقافية في النص الروائي.

وبعد الانتهاء من المناقشة بين الضيوف وطرح الأوراق جاءت مداخلة من الجمهور، حيث إن د. هدى عبد العزيز أكدت على دور الرواية في التحولات الاجتماعية وذكرت أمثلة على ذلك، وبعدها ختمت الدكتورة زينب الخضيري الندوة بشكر الضيوف وشكر د. زيد الفضيل ثم كانت الختام النهائي للدكتور زيد الفضيل حيث شكر الجميع على الندوة القيمة والطرح المميز.

أبرز التوصيات الصادرة عن الندوة:

- البحث في نظرية التلقي بين العالم الافتراضي والواقعي، وذلك بالموازنة بين الحضور الروائي عبر الفضاء الإلكتروني والورقي.
- البحث في سيمائية الأهواء في الرواية الخليجية الجديدة.
- تعد الرواية وسيلة وأداة نهضوية للمجتمع الإنساني نحو التجدد المتوافق، والقيم النبيلة. لذلك، لابد من عمل دراسات أكثر لتوضيح دورها وأهميتها في التحولات الاجتماعية والثقافية.
- تواكب الرواية المستجدات والتحولات الاجتماعية والثقافية، لكن بطريقتها الخاصة، كونها نوعا ينتمي لمظلة الأدب. فإن خوض غمار الكتابة الروائية يتطلب وعيا كافيا بطبيعة الجنس الأدبي، وثقافة جيدة تمكن الكاتب من إنتاج عمل أدبي يستحق النشر والقراءة.
- النظر لدور الرواية من خلال وظيفتها البنيوية، بوصفها نوعا أدبيا ينطلق من طبيعته الخاصة.
- إذا كان الأدب فنا مشاعا للجميع (إبداعا وتذوقا)، فإن دراسته تأتي ضمن محل معرفي يدعى النقد الأدبي والدراسات الأدبية، وعليه حري بأن يترك أمره للمتخصصين.
- يعد رفع الوعي بالظاهرة السردية مسعى معرفي وتربوي مهم، يسهم في تطوير مهارات التفكير النقدي في المجتمع.

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الخليج للأبحاث وشركة المعرفة